جزاء سِنِّمار

تليان وزوجتهُ

" غدًا يقتلونني أفلست الاَّ نذلاً جبانًا "

هذا ما كتبتهُ الى عشيقها امرأة بديعة الجمال بعد ان غلبها اليأس واشتدَّ بها الجزع وهي في السجن وقد قضي عليها بالموت . هذه هي تريزيا ابنة الكونت كباروس رجل فرنسوي الاصل اسباني المولد . كانت في سجن " لافورس " في باريس مع من طُرح فيهِ من الابرياء في عهد الجمهورية الاولى (١٧٩٤) وهم ينتظرون القتل علنًا بقلوب واجفة . وكان موعد قتلهم في غد اليوم الذي كتبت فيهِ ما كتبت وذلك في اليوم التاسع من شهر ترميدور[1] في السنة الثانية من الجمهورية الاولى

وكانت قد تزوجت قبل الثورة مركيز دي فونتناي وسكنا بوردو . ففي الثورة قُبض عليهما وطرحا في السجن بتهمة ان لها علاقة بالاشراف والاعيان وانهما كانا ينويان الفرار الى اسبانيا

وكان زمام الامر حينئذٍ بيد روبسبيير وانصارهِ ولهم احدى وعشرون الف لجنة من لجان الثورة بثَّت العيون والارصاد والجواسيس في جميع انحاء فرنسا يأمرون وينهون بما لم يبلغ اليهِ حوَل ملك فرنسوي ولا تجاوزهُ طول طاغية روماني في اكثر ايام رومية بؤسًا واشدها ظلمًا . فكانوا يحكمون الاحكام الجائرة وينفذونها ولا رادع لهم ولا رقيب عليهم حتى امتلأت السجون بالابرياء من الرجال والنساء

غير ان ما خصَّت بهِ هذه المرأة من الحسن الرائع والجمال البارع حال دون انزال البلاء بها وبزوجها فانها امتلكت لبَّ شاب من اكبر زعماء الثورة اسمهُ تليان كان قد أُرسل من باريس الى بوردو ليستأصل شأفة الملكية منها فبات وهو الآمر الذي لا يردُّ لهُ امر لا يستطيع ان يردَّ لها اشارة . وكان قد رآها قبل ذلك باربع سنوات وهو عامل في احدى مطابع باريس فافتتن بها . والآن اصبح الرجل الوحيد الذي يستطيع ان ينقذها من الموت فانقذها هي وزوجها

وتليان هذا اشتهر بالهجوم على قصر التويلري وكان من اشدّ زعماء الثورة بطشًا واعظمهم فتكًا اتى بهِ بونابرت معهُ الى مصر بعد انتهاء الثورة بخاء القاهرة وقضى مدة فيها يحرّر الجريدة

(١) الشهر الحادي عشر في روزنامة الجمهورية اولهُ ١٩ يوليو وآخرهُ ١٨ اغسطس واليوم التاسع منهُ اي ٢٧ يوليو مشهور لان روبسبيير احد كبار زعماء الثورة قتل فيهِ

الرسمية الفرنسوية المسماة "دكاد اجبسيان" ثم عزلهُ الجنرال منو. وكان وضيع الاصل ضعيف النسب صغير النفس مثل اكثر زعماء الثورة فلم يكن في معاملتهِ لها اكبر نفساً ولا اكثر مروءة وابرَّة مما طبع عليهِ. فصاحبها في بوردو وكارهة ثم تزوجها في باريس مكرهة. ولما اكل ما انتدب اليهِ في بوردو اخذها معهُ الى باريس. فنظر روبسبيير وغيرهُ من زملائهِ اليهِ والى علاقتهِ بها نظرة الشبهة والايجاس لانها من الاشراف فخافوا ان ينقلب عليهم فقبضوا عليها ثانية والقوها في سجن "لافورس" المذكور آنفاً وحكموا عليها بالقتل فكتبت الى تليان حينئذٍ تستثيرهُ للدفاع عنها قائلة "غداً يقتلونني افلست الآ نذلاً جباناً"

اما تليان فلم يكن الرجل الجبان الذي يصبر على الضيم والاذى ويقعد عن خلاص محبوبتهِ ولكن ما هي حيلتهُ فقد ضحى نفسهُ في سبيلها المرة الاولى وكاد يفقد ثقة اصحابهِ بهِ اكراماً لها ولم يحفظ لهُ مكانتهُ عندهم الآ ما كان يظهرهُ من الغيرة الشديدة على الثورة ومبادئها. فلم يجرأ على الانتصار لها هذه المرة ايضاً علماً بان ذلك لا يجديهِ نفعاً بل ربما اودى بهِ وبها معاً

ولكنهُ لم ييأس ولم يقنط بل سعى سعياً مستمرًّا لعلهُ يستطيع الى انقاذها سبيلاً. وكانت امهُ بوابة في منزل بشارع "لا يرل" وبجانب السجن منزل فيهِ بوابة أخرى صديقة لامهِ فكان يدخل المنزل كل يوم سرًّا فيرى من احدى نوافذهِ الامراة التي كانت شغلهُ الشاغل ويكلمها تارة بالاشارة وطوراً بالكتابة. ولم يكن يدري بموعد اعدامها حتى جاءتهُ هذه الرقعة منها فهاج وماج وارغى وازبد واقسم لينقذنها او يموت

ومهما كانت عيوب تليان ونقائصهُ فانهُ كان شجاعاً بطلاً اذا اثير ثار كأنهُ اسد رئبال فرأى ان السبيل الوحيد الى نجاة خليلتهِ قلب الهيئة المتربعة في دست الاحكام حينئذٍ واثارة ثورة وسط ثورة وتسليط فوضى على فوضى والقذف بروبسبيير وانصارهِ من حالق. ففكر في ذلك ملياً وعقد العزم عليهِ مع ما يحف بهِ من الاهوال والمخاطر. ولم يرعهُ الاقدام على هذه الثورة سعياً في تخليص امرأة فاما ان يخلصها او يقتل معها

***

جاء صباح التاسع من شهر ترميدور وهو اليوم الملقَّب "يوم اللَّهب" وأُعدت المركبات لنقل المحكوم عليهم بالقتل وعدتهم ستة وثلاثون نفساً ووقف الجلاَّد ومساعدوهُ في "ميدان الثورة" يشحذون آلات الذبح لساعة العصيبة. وعقدت الجمعية الوطنية برئاسة روبسبيير لتسمع ما يقولهُ هو وغيرهُ من الزعماء ولكن اعضاءها لم يبدوا من الارتياح ما جرت عادتهم بهِ قبلاً كأنهم ملُّوا تلك الحال وكأنهم يرومون الخلاص منها فلا يلزم لذلك سوى عزمة من عازم او

كلمة من قائل حتى يلتفّوا حولهُ فتنقلب آمال روبسبيير واتباعهِ احلاماً وتذهب مساعيهم ضياعاً

ولم تعدم الجمعية رجلاً يعزم تلك العزمة ويقول تلك الكلمة — رجلاً تمرّس بجميع فظائع روبسبيير ورجالهِ ومحارمهم وجزّاراً ترك بوردو سابحة في بحر من الدماء . فلما أزفت الساعة لقتل الابرياء وازدحم الموقف بجماهير المشاهدين وثب تليان وهيئتهُ واشارتهُ كمن أُصيب بمسّ من الجنون وصاح برجال الجمعية الوطنية ان ينهضوا من غفلتهم ويقاوموا جماعة العتاة الغاشمين الذين اغتصبوا السلطة من ايديهم وصيروا الجمعية الوطنية في حال من الرقّ والاستعباد لا يُصبر عليها وتركوا الجمهورية تسبح في سيل من دماء الابرياء

قال المؤرخ " لنوتر " يصف تليان في تلك الساعة ما يأتي

" وقف وعيناهُ تقدحان شرراً وصدرهُ يجيش غيظاً ويغلي غمراً فصعق سامعوهُ لما رأوا من اقدامهِ وما سمعوا من فصاحتهِ ثم بعث فيهم روح عزم وشجاعة فصيّر جمعيتهم التي كانت كأنها جثة من الغراء لا حياة فيها ولا شعور ولا حراك جسماً حيّاً فيهِ العظم والعصب . ولما أمسك روبسبيير من خناقهِ وجذبهُ الى الارض من مجلسهِ لم تمدّ يدٌ لا يقافهِ عند حدّهِ ولم يعلُ صوت للاعتراض على فعلتهِ . فهو قد خلّص الجمهورية وفرنسا بل العالم اجمع من غير ان يقصد ذلك او يدري بهِ . ولقد نال مأربهُ اقدم على ثورة لينقذ من الموت تلك التي احبّها "

فانتهى بذلك حكم الارهاب الذي ساد البلاد وكان شعارهُ اراقة الدماء ففتحت السجون وأُطلق منها سراح المسجونين المظلومين فلم تقلّ المركبات احداً الى ساحة الاعدام بعد ولا شحذت آلة الذبح لتضريب الاعناق وازهاق الارواح الاّ حين سيق روبسبيير وعشرون من انصارهِ بعد ايام قليلة الى حيث احتزت رقابهم وختم حكم الارهاب بدمائهم

وعظم شأن تليان بعد هذه الحادثة فصار سيّد فرنسا وقائدها وخدمها اجلّ خدمة في الشؤون العسكرية والملكية معاً . وكان من اعمالهِ انهُ صار حامي بونابرت حتى لقد قيل انهُ لولاهُ ما استطاع بونابرت ان يتوج رأسهُ بتاج فرنسا

على ان السعد لم يخدمهُ طويلاً بعد ذلك نعم انهُ كان راضياً بحالتهِ سعيداً بالحصول على اجمل نساء باريس ولكنها هي لم تكن راضية بذلك لانها اعتادت عيشة النعمة والترف مع زوجها الاول وتليان لم يكن موسراً ولو شاء لكانت لهُ زروع وأنعم وثروة طائلة مثل غيرهِ من زعماء الثورة الذين عرفوا كيف تُغتنم الفرص ولكن اباء نفسهِ حال دون جمعهِ للمال بالوسائط الدنيئة وكان يحسب نفسهُ اغنى الناس واسعدهم بحبيبتهِ والناس يحسبونهُ كذلك

ولما لم يبق امامهُ مطمح يطمح بابصارهِ اليهِ ولا مطمع يمنّي نفسهُ بهِ وكلّ ما يشتهيهِ عندهُ

عزم على اعتزال مناصب الحكومة والسكنى في منزل بسيط بعيداً عن الهموم والمشاغل لكن ابنة انكونت وزوجة المركيز لم يرضها شظف العيش . فقد كانت ناعمة البال مجبورة الخاطر ايام كان تليان يقيم الحفلات ويومِ الولائم فيؤمُّ داره كل ذي وجاهة وذات دلال ليسجدوا امامها — ايام كانت زوجة بطل ترميدور وسيّد فرنسا . اما الآن وقد اعتزل الشؤون العمومية وانزوى في منزل حقير انزواء الراهب العابد في ديره او الناسك الزاهد في مسكنه فلم يطب لها المقام معهُ بعد ذلك بل تاقت الى عيشتها السالفة وحنَّت الى منزلها الاول

وفي ذات يوم افتقدها فلم يجدها . وبيان الخبر ان صديقاً من اصدقائهِ الاغنياء بنى قصراً بديعاً في شارع مجاور لمنزلهِ ودعاها لزيارتهِ فسخرت بما رأتهُ فيهِ وصاحت وقد عرتهُ الدهشة" ما اجمل هذا القصر — هنا السعادة والهناء المقيم" فأجابها صاحبهُ " ما دام الامر كذلك فدونكِ مفتاحهُ "وكان هذا الحديث المقتضب بدء الفصل الثالث من رواية حياة هذه المرأة التي كانت مركيزة دي فونتناي فصارت مدام تليان والآن سمت نفسها باسمها وهي فتاة قبلما تتزوج اي — تريزيا كباروس . وكانت لم تجاوز الثلاثين من سنها وعادت لا تهتم بتليان الاَّ لتطلقهُ باسرع ما يمكن

***

وبدأ الفصل الرابع من رواية حياتها سنة ١٨٠٥ عند ما تزوجت برنس دي كرمان . وكان لها اربعة اولاد من تليان صبيٌّ وثلاث بنات ولكنها كانت تبذل الجهد في نسيان ما مضى ولم تلتقِ بتليان بعد ذلك سوى مرة واحدة وذلك ان ابنتهما البكر واسمها ترميدور كانت مخطوبة لنكونت دي ناربون بليه . فازف يوم زواجهما وكان لا بدَّ من حضور تليان لامضاء عقد الزواج على كره من اصحاب العرس . فحضر وامضى العقد ببساطة لا يشينها شين وهو الرجل الذي امضى قبل ذلك بعدة سنوات عقد زواج زوجين لولاهُ لم يصيرا امبراطورين (نابوليون وجوزفين)

ولما انتهى العقد تنازلت التي كانت زوجتهُ ودعتهُ لركوب مركبتها حتى الشانزاليزه بجوار منزلهِ الحقير فقبل دعوتها وركب معاً آخر مرة في الشوارع التي طالما ضجت بصدى الهتاف والابتهاج لرجل جعل لترميدور شأناً في التاريخ لا ينسى وقضى قضاءه مبرماً على حكم الارهاب والاستبداد

وفي ١٧ نوفمبر سنة ١٨٢٠ نشرت جرائد باريس خبراً موجزاً تنعي فيهِ المسيو تليان وتقول انهُ مات فقيراً مدفعاً في منزل حقير وكاد يضور جوعاً قبل موتهِ لولا ان الملك عيّن لهُ مرتباً طفيفاً من جيبهِ الخاص جزاء مساعدتهِ لهُ على خلع اخيهِ